لقد شاهدت في حياتي عددا قليلا من الرجال يجترعون الدخان بهذه اللذة ، وكان حسنين منهم ، لا شك انه اشتهى هذه اللفافة منذ ولد ، وربما جاء الى هنا كي يضع دخانها في صدره ويمضي ، لم يبد في تلك اللحظة راغبا في اي شيء آخر من الحياة كلها ، وكان كل شيء في هذا الرجل يقول لي انه سيكون فلاحا صعبا ، وقد تعلمت دائما ان الرجال الذين يمتلكون فرسا أصيلة يصعب التعامل معهم من فوق ولذلك ، فهم لا يبيعونها حتى لو فتك بهم الجوع ، انها ــ لهم ــ اكثر من صهوة أمينة ، انها ملاذ وصديق وشقيق في وجه العالم .

وقال لي « انا الرئيس هنا ، قال لي الحاج عباس عنك . وغدا سنبدأ معا » . ولكنني كنت أعرف انه يريد أن يقول شيئا آخر ، وخذله صمتي فقام بطيئا ، وعاد الى الهيجا فخبط يده برفق على ظهرها العاري ونظر الي :

ــ « انها فرس لا تقدر بثمن » وهزت هيجا رأسها برضى وحكت أنفها على ظاهر يده وعادت الى علفها ، وقال الرئيس قبل ان يترك المكان « سيكون لنا حديث طويل غدا »، واذ خرج جاء رجل آخر وقف على الباب وهتف : الحاج عبـــاس يريدك يا حسنين ، وقمت ، وكان الحاج عباس واقفا امام الاسطبل ينظر الى ثلاثة اكياس من الطحين ملقاة فوق بعضها ، واشار نحوها دون ان ينظر الي ، وتطوع الرجل الاخر فحكى : « يريدك أن تدخلها الى البيت » ، وسحبت كيسا فوق بلاط المدخل الخشن ، ثم استدرت وعطفته على ظهري ودخلت ، ووراءي جاء صوت امرأة يقول « الى الامام قليلا » ، وحين وضعته نظرت اليها فقالت وهي تبتسم : أنا زينب .

ولم أكن على استعداد لأرى ذلك الوجه حين استدار الظهر المغبر بالطحين ، ولكنني حين فوجئت بعينيه السوداوين تنظران الي لم اجد شيئا أقوله غير اسمي ، كان شابا في أواسط العشرين ان كنت أحسن تقدير الاعمار ، صلبا طويلا وله كفان كبيرتان تلفتان الانظار . انهما تذكران بالحائط . وكان قميصه الفضي ممزقا ومفتوحا عن صدر أسمر مشدود العضلات ، وكانت عنقه مشعرة وقوية تحت ذقن تكـــاد تكون مربعة كحجر محطم سقط هناك بالصدفة ونبت عليه طحلب أسود شرس وقصير .. وحين نظرت الى كتفه لاحظت ذلك الخط الداكن الذي خلفه هناك ، بلا ريب ، حزام بندقية . واستدار دون ان يقول شيئا وخرج ، ومن شق الباب رأيته يعالج الكيس الآخر بقدمين ثابتتين كجذعي شجرة . وسمعت « عبود » يقول له : « قول الله يا حسنين » فقلت لنفسي : اسمه حسنين .

ودخلت بالكيس الآخر وتركته ينزلق عن ظهري الى جوار الكيس الاول ، ومرة اخرى سمعت صوتها يقول : « الله يخليلك هالهمة يا حسنين » فهززت رأسي مشغولا بتسوية الكيس واقفا ، ولكنها قالت : من اين انت ؟ وحاولت أن أجيب حقا ، ولكنني سمعت صوتا ورائي ، وجاءت خطوات الحاج عباس هادئة كأنها تسترق شيئا فعدت أدراجي الى الخارج لاحمل الكيس الثالث وظل الحاج عباس واقفا الى جوار زينب ، وحين رجعت بالكيس كان ثمة شيء جديد في جو الغرفة الرطب استشعرته في نظراتها الي . ووقف واخذ ينظر الينا واقفين معا ، زينب وأنا . كأننا اب مع ابنته حقا ، وعندها طلبت منه أن يسوي الكيس الى جانب الكيسين الآخرين ففعل دون تردد ، لقد بدا الكيس اصغر من المعتاد وأخف وزنا حين شاله من أذنيه بين ذراعيه القويتين وحطه دون عنف في المكان المناسب ، وفجأة وجدتني اقول له ما كنت أنوي أن اقوله له بعد شهـــر أو شهرين :

ــ سأعطيك زينب يا حسنين ان نويت على الخير .

وكنت أتوقع أن يحدث كل شيء ، تلك اللحظة ، الا أن اسمع الحاج عباس يلفظ تلك